نظرية المعرفة قديمة قدم التفلسف ومع ذلك لم تكن بحثا مستقلا ، وإنما يـــؤرخ لهـــا بدراسة منهجية منظمة قام بها الفيلسوف الإنجليزى جون لوك ، إذ كان أول من وضع هـــذا البحث فى صورة العلم المستقل ، وذلك فى كتابه (مبحث فى العقل البشرى) الذى نشر ســـنة ١٦٩٠م ، ويعد هذا الكتاب بحق أول بحث علمى منظم يتناول بـــالفحص والـــدرس أصـــل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين فيها ، وغيرها من القضايا التى كانت مختلطة فـــى مؤلفات السابقين .

والمعرفة من أهم النظريات التى عنى بها المسلمون عناية كبيرة ، ولمسوا فيها التقابل بين عالم المثل وعالم الحس ، أو بين الأفلاطونية التى ترى أن العلم تذكر والجهل نســـيان ، وبين الأرسطية التى تؤسس المعرفة على الحس والعقل ، وذلك بانطباع صور المحسوســـات فى الحواس ثم قيام العقل بالتجريد وانتزاع المعانى الكلية ، وقد حاول المســـلمون كعـــاداتهم التوفيق بين الطرفين .

وهذا ما نرصده فى هذه الدراسة عند الغزالى وابن رشد ، وهما شخصيتين ناقـــدتين وقطبين كبيرين فى الفكر الإسلامى ، يمثل أولهما الاتجاه الذوقى فى المعرفة ، ويمثل الآخـــر الاتجاه العقلى البرهانى ، أما الغزالى فقد كان إدراك حقائق الأمور عادته المستمرة ومطلوبه فى رحلة بحثه عن الحقيقة ، فقد كان يبحث عن الحقيقة بكل مداركه الحسية والعقلية والقلبية ، ولم يصل إلى اليقين بمنهج تقليدى بل اعتمد على وسائل المعرفة من حس وعقل ووجد أنهـــا غير كافية لليقين الذى يبحث عنه ، ولذلك لم يجد سبيلا للمعرفة إلا بنور قذفه الله فى صدره ، فاتجه اتجاها صوفيا ، واتخذ من الإلهام أساسا للمعرفة ، إذ أن وسائل المعرفة مـــن حـــواس وعقل لا يمكن أن نثق فيها دون الثقة والإيمان بأن الله لا يضل عباده المؤمنين .وبهذا كانـــت نظرية المعرفة عند الغزالى نظرية متكاملة إذا ما قورنت بما خلفه السابقون عليه فيهـــا مـــن أقوال متفرقة ، كما جاء هذا التنظير في المعرفة أصيلاً خالياً من التقليد ، وذلك بتجديده لفكره وعدم البناء على أفكار غير موثوق فيها .

وأما ابن رشد فقد تميز باتجاهه النقدى ، ويبدو ذلك من خلال نقده لمناهج الســـابقين عليه فى المعرفة ، فقد انتقد جمود أهل الظاهر فى أخذهم بظاهر الـــنص الـــدينى ، وانتقـــده المتكلمين فى طريقهم الجدلى الكلامى الذى يأبى أن يتجاوز دائرة الجدل إلى دائرة البرهان ، ذلك الحس النقدى الذى جعل منه فيلسوف العقل فى الإسلام ، إذ فتح بنزعته العقلية الطريق أمام الفلسفة والتفلسف بعد هجوم الغزالى عليها . ورجح الطريق البرهـــانى فـــى المعرفـــة ،

وأعلى من شأن هذا المنهج العقلى البرهانى فى مقابل كل من المنهج الجدلى عند المتكلمين والمنهج الخطابى عند العامة ، وذلك لعدم موائمة هذين المنهجين فى تناول المشكلات الفلسفية.

كما دعا ابن رشد للجمع بين النقل والعقل كمنهج للمعرفة ، ورأى أنه لا تعارض بينهما وأنهما ليسا بخصمين ، إذ أن فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، وأنه كلما كانت المعرفة بالصنعة أتم كلما كانت المعرفة بالصانع أتم ، والشرع دعا فى الكثير من آياته إلى اعتبار الموجودات بالعقل ، ولهذا قطع ابن رشد بأن كل ما أدى إليه البرهان ، وخالفه ظاهر الشرع ، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى .